الفصل الثانى

حركة الإصلاح الدينى

- تمهـــيد
- مارتن لوثر: مصلحاً بروتستانتياً
- الثورة الأخلاقية وحياة التطهر
- نتائج الإصلاح الدينى

obeikan.com

تمهيد

كان الإنسان فى العصر الوسيط فرداً فى جماعة يسير فى ركابها ويعمل بوحيها، فاسترد فى عصر النهضة استقلال شخصيته، واستكمل نزعته الفردية التى كانت قد انطمست منذ أواخر عهد اليونان والرومان، وكان من أثر هذا التطور اشتداد حركة الإصلاح الدينى التى تولت بالنقد أكبر هيئة دينية مقدسة، وأتاحت لغير الكنيسة تفسير الأناجيل، وأفضت إلى تحرير العقل من قيود العقيدة الدينية، ولكننا لن نقوم هنا بحصر شامل لكل الآثار التى نجمت عن النزعات العديدة والتى تجمعت فأدت إلى حركة الإصلاح الدينى، أو أن نسعى لأن نحدد إلى أى مدى كان انتشارها يرجع إلى كراهية الناس لنظام دينى شكلى فى العبادات، أو ثورتهم على الملك الروحى الأجنبى فى روما، أو إلى رغبة الأمراء والتجار فى نهب ثروات الكنيسة. والواقع أن عصر الإصلاح لم يكن فى الحقيقة عصراً كثير التدين، وكانت مناهضته للرهبانية صادرة عن نزعة قليلة الارتباط بالإيمان الدينى أو التقويم الأخلاقى، لكنها على أى حال دفعت إلى مسرح الحياة الأوروبية بعض قادة الأخلاق والدين، فحطموا قوة كنيسة روما واندفعوا فى تيار قوى من الإيمان والتطهر [1].

وتمثل حركة الإصلاح الدينى من الناحية الدينية ثلاثة أمور:

أولاً : تبسيط مجموع العقيدة المسيحية، مع التشديد على نظرية الخلاص ووسائلها واعتبارها الدعائم الأساسية .

ثانياً: التشديد الفردى على الخلاص واعتباره علاقة مباشرة بين النفس وخالقها، واعتبار الدين أمراً شخصياً داخلياً.

ثالثاً: ما نتج عن ذلك من إهمال لنظام الطقوس الدينية الذى عرفته كنيسة القرون الوسطى، وما رافقه من تسلسل فى مراتب الكهنة .

ومن الواضح أن هذه التغيرات على شدة تأثيرها فى الكنيسة، لم تمس العقيدة الأساسية فى فساد طبيعة الإنسان وانحطاطها وغضب الله وقصاصه الأبدى. ولم تتعرض لحاجة الإنسان القوية للخلاص، والفكرة التقليدية عن عمل المسيح كمنقذ للإنسان. وقد كان المذهب البروتستانتى متفقاً مع كنيسة القرون الوسطى ومعارضاً لإنسانية النهضة التى كانت نظريتها الأساسية، التشديد على مكانة الإنسان الطبيعى وقيمته. وهكذا فالمصلحون البروتستانت أثبتوا أن حركة الإصلاح كانت رد فعل يمثل القرون الوسطى ضد الاتجاهين الطبيعى والإنسانى اللذين قدر لهما أن يطبعا بطابعهما العصر الحديث [2].

* * * *

مارتن لوثر: مصلحاً بروتستانتياً

Martin Luther

[1546 – 1483]

كان "مارتن لوثر" راهباً أوغسطينياً ومعلماً للاهوت وكان معارضاً لتلك الممارسات الهابطة من قبل الكنيسة – أعنى بيع "صكوك الغفران" – وفى عام 1517 خرج نشاطه إلى العلن ونادى بالقضايا الخمس والتسعين المشهورة، التى سجلها فى وثيقة علقها على باب كنيسة قلعة "فتنبرج" Wittenberg. ولم يكن فى ذهنه – حين تحدى السلطة الكنسية – أن يقيم مذهباً دينياً جديداً. غير أن هذه المسألة الشائكة كانت تثير مشكلة سياسية هامة، هى الحصص المالية الضخمة التى كانت تدفع لدولة أجنبية، وعندما حرق "لوثر" علناً المرسوم البابوى طرده من الكنيسة عام 1520. ولم تعد المسألة تقتصر على الإصلاح الدينى، إذ بدأ الأمراء والحكام الألمان يتخذون موقفاً، وأصبح الإصلاح ثورة سياسية للألمان ضد سلطة البابا الأشد خفاء [3].

وبعد انعقاد مجلس فرمز Worms (لمثلى الولايات الألمانية الذى دعا إليه الإمبراطور شارل الخامس لبحث قضية "لوثر") ظل "لوثر" مختفياً، وأعاد كتابة "العهد الجديد" باللغة الشعبية. وقد ساعد هذا على انتشار كلمات الإنجيل على أوسع نطاق بين الناس، وأصبح فى استطاعة أى شخص – قادر على القراءة – أن يدرك التباين الشاسع بين تعاليم المسيح والنظام الاجتماعى القائم، وكان هذا العامل بالذات (*) هو ـ إلى حد بعيد ـ الأساس المعنوى الذى قامت عليه ثورة الفلاحين عام 1524.

(*) مضافاً إليه النظرة البروتستانتية الجديدة إلى الإنجيل على أنه السلطة الوحيدة .

وجاء لفظ "البروتستانت" من نداء أصدره مؤيدو الإصلاح الدينى واحتجوا فيه على محاولة الإمبراطور أن يعيد العمل فى عام 1529 بأحكام مجلس فرمز، الذى أعلن فيه أن المصلح وأتباعه خارجون عن القانون، ولكن فى عام 1532 اضطر الإمبراطور كارهاً بموجب اتفاقية الصلح الدينى فى "نورمبرج" إلى إعطاء ضمانات لأولئك الذين يريدون ممارسة عقيدتهم الجديدة بحرية [4].

إنجيل لوثر

لم يكن "لوثر" منتمياً إلى حركة "الإنسانيين" المنادين بالإصلاح، ولم يتأثر بالعوامل الفكرية السائدة فى أيامه، بل كان رجلاً اجتاز تجربة دينية شخصية حتى تركز اهتمامه حول الحياة الدينية العملية. وقد أدرك السلام الداخلى والأمان الروحى عندما وجد فى إنجيل المسيح الشفقة الإلهية والمحبة المتسامحة إزاء جميع الضالين، حيث رأى فى فساد الناس الحقيقة الأساسية فى التجربة البشرية، وذلك باعتقاده أن الخلاص من غضب الله هو غاية الإنسان القصوى. وبمجرد إيمان المرء برسالة الإنجيل التى تبشر بإله محب لطيف، فإنه يدرك الخلاص ويحقق السلام المنشود، فلا حاجة بعد ذلك للخشية من آلام الجحيم أو إلى تبديل طبيعة الإنسان الأخلاقية بوساطة طقوس الكهان وما بها من قوة سحرية. ووساطة الخلاص هى الإيمان وحده، الإيمان أن الله هو الأب المحب الذى يبحث عن الابن الضال ويرحب بعودته، ولم يعد فى استطاعة الإنسان أن يشترى رضا الله بضروب الإحسان وتأدية الطقوس ودفع مال الكهنة، أكثر ما يستطيع أن يحظى بمحبة والده الأرضى [5].

وهنا يتفق "لوثر" مع القديس "أوغسطين" بالإيمان بالقدر، وبأن الله اصطفى بحكمته أولئك الذين سيكشف لهم عن طبيعته ويهبهم السلام. ولما وجد فى المسيح وحده رسالة الإله المحب، فقد شدد على أنه لا يمكن أن يوجد إيمان خارج المسيح. واعتقد أن ما يأتى به الإيمان من شعور بالتحرر من خوف العقاب يحرر الإنسان من جميع قيود الأنانية فتصبح الحياة المسيحية هى خدمة الإنسان للإنسان، خدمة مصدرها الثقة المطلقة بمحبة الله.

أما غاية الكنيسة بالنسبة لـ "لوثر" فهى غاية تبشيرية بالدرجة الأولى مهمتها نشر الإنجيل، فحيثما وجد الإنجيل وجدت الكنيسة، لذلك يجب أن يوعظ بالإنجيل لإيقاظ الإيمان الضرورى الشامل، ولكن لا حاجة فى سبيل ذلك إلى الكهنة والطقوس السحرية .

* * * *

obeikan.com

الثورة الأخلاقية وحياة التطهر

كانت حركة الإصلاح الدينى ثورة أخلاقية، شجبت ثنائية القرون الوسطى وما رافقها من زهد وتعلق بالعالم الآخر، وكانت فى جميع هذه الأمور متأثرة تأثراً قوياً بالنزعة الإنسانية فى تشديدها على قيمة الحياة فى هذا العالم، وكان الهدف الرئيسى عند بعض أصحاب النزعة الإنسانية من الإيطاليين هو مهاجمة المثل الأعلى للرهبنة بما فيه من عزلة وزهد، واعتبروا أن هذه الأمور غير ضرورية للخلاص الدينى، بل هى منافية لأفضل شكل للحياة الإنسانية. ونادوا باستبدال هذا النمط من الحياة بالبساطة التى بشر بها الإنجيل من إنسانية وطهارة فى القلب ومحبة للآخرين. وشن "إرازموس" معركته الطويلة لتحقيق ما دعاه بـ "فلسفة المسيح" التى يمكن أن نجدها فى العظة وفى تعاليم أفلاطون والرواقية، فلا الطقوس الخارجية ولا الاحتفالات ولا كفاح الرهبانية من أجل الطهارة، ضرورة للمسيحى النقى؛ ولكن البر الداخلى الذى يفصح عن ذاته بالأعمال الصالحة [6]. يقول "إرازموس" فى كتابه "الفارس المسيحى":

"إن الطريقة الصحيحة لعبادة القديسين هى فى تقليد فضائلهم، وهم يقيمون وزناً لذلك أكثر مما يقيمون لإضاءة مائة شمعة".

ويقول فى موضع آخر

« لا شىء يتفق مع طبيعة الإنسان أكثر من فلسفة المسيح، التى لا غاية لها إلا أن تعيد الطبيعة البشرية الساقطة براءتها ووحدتها » [7].

وهنا طرح "لوثر" جهاز الكنيسة للخلاص، ووافق على هذا المثل الأعلى فى الأخلاق ودعا إليه. وذهب إلى أن حياة المسيحى المتحرر من القلق يجب أن تصرف فى محبة خالصة وفى خدمة الناس .

حياة التطهر

أخذت الفئات الداعية للطهارة الأخلاقية تزداد قوة منذ منتصف القرن السادس عشر، وكانت المثل العليا يجمعها عنوان واحد هو التطهر. وحياة التطهر رد فعل للاتجاه الطبيعى والإنسانى فى النهضة، حتى طغت عليه خلال قرن بكامله، لكنها ليست مجرد دعوة للعودة إلى القرون الوسطى لأنها ترفض الرهبانية الأعلى فى الزهد، وتعود قوتها إلى الطريقة التى تمكنت بفضلها من تحقيق الانسجام والسمو لمقاصد المجتمع الصناعى وأهدافه.

ونجد المثل الأعلى "للتطهر" مجسماً فى الشاعر "ملتون" الذى يعتبر من أكبر "المتطهرين". فقد كان مثقفاً محباً للفنون وموسيقياً بارعاً، وعالماً كبيراً فى اللاتينية والعبرية واليونانية ؛ عميق الاطلاع على آداب فرنسا وإيطاليا وانجلترا. نهل من الملذات كثيراً، ومع ذلك كان يسيطر عليه فى حياته حس أخلاقى شديد. يقول فى إحدى قصائده:

« إذا كان الله قد وضع حباً عنيفاً للجمال الخلقى فى عقل أى إنسان، فقد وضع ذلك لدى ».

كما يقول أيضاً:

« عليك بمحبة الفضيلة، إنها وحدها حرة »

وكان إلى جانب ذلك ميالاً إلى أن يكون متحفظاً، كارهاً التقديرات العامة والفاسدة، يقول :

« أحب كل ما كان من الله، وأكره بشدة الشرير والدنس » [8].

غير أن لحياة التطهر جانبها المظلم فى حياة "ملتون"، فقد كان حسه المرهف بجدية الحياة، يبعده عن الانطلاق والمرح العفوى حتى كان يؤثر فى كبرياء الاعتزال عن الحياة الفظة التافهة ..

نتائج الإصلاح الدينى

ماذا كانت نتائج الإصلاح الفعالة التى خرجت بالعالم الحديث من القرون الوسطى؟ يمكن تلخيص إجابة هذا السؤال فى النقاط الآتية:

أولاً: أنها حطمت وحدة نظام القرون الوسطى التركيبى وشموله، فلم يعد النظام المسيحى وحده عضوية كاملة. فقد أخذت بعض العناصر واستعملت من أجل نقد العناصر الأخرى. وأظهر "لوثر" أنه يمكن إيجاد طريق للخلاص خارج الكنيسة، ونادى ـ فى دعم دعواه ـ بالتأويل العقلى لسلطة الكتاب المقدس .

ثانياً: ظهور النزعة الفردية فى "البروتستانتية التى نقلت السلطة الفكرية إلى تجربة الفرد، ورأت أن من حق الفرد إصدار حكم مستقل فى قضايا الدين، ومن حقه التأويل الشخصى للكتاب المقدس. ولا شك أن "البروتستانت، والكاثوليك" فى عهد الإصلاح كانوا سواء فى كرههم للعقل، جاء ذلك فى تعليم قواعد "الدين المسيحى" الذى وضعه مجمع "ترانت".

« إن من وهبه الله معرفة الإيمان يصبح حراً من فضول البحث، لأنه عندما يأمرنا الله بالإيمان، فهو لا يطلب منا أن نبحث فى أحكامه الإلهية بل يطلب إيماناً لا يتغير.. فالإيمان يقضى بالنتيجة، لا على كل شك فحسب، بل حتى على الرغبة فى إخضاع حقيقته للبرهان ».

وبذلك ابتعدت الكنيسة عن العقل الباحث الذى عرفته عند "توما الإكوينى"، وهاجم "لوثر" ملكة العقل واصفاً إياها بأنها:

« تلك المجنونة الصغيرة الحمقاء، عروس الشيطان، السيدة العقل ألد أعداء الله ».

وقال أيضاً:

« نحن نعرف أن ملكة العقل من الشيطان لا تفعل سوى التشهير والأذى فى كل ما يقوله الله ويفعله. وإذا أردت أن تعرف بنفسك علاقتك بالله دون اعتماد على المسيح، فأنت محطم عنقك. إن الرعد ليضرب من يبحث ، إن حكمة الشيطان تدفعنا إلى البحث فى ماهية الله، ولا يريد الشيطان من وراء ذلك سوى جرنا إلى ظلمات الهاوية » (9).

ثالثاً: مناهضة محاكم التفتيش (*) التى جاءت لتستأصل الاعتقادات المخالفة. وكان "لوثر" فى مطلع عهده يطالب بالتسامح معلناً أنه:

« لا يمكن منع الإلحاد بالقوة وأن الإيمان حر فما الذى تستطيع أن تفعله محاكمة الكفر ؟ »

رابعاً، مع أن الإصلاح لم يضف شيئاً إلى مضمون التعليم إلا أنه ساعد كثيراً على انتشاره، فقد ضيقت النزعة الإنسانية نطاق التعليم من المدى الواسع الذى كان معروفاً فى ذروة القرون الوسطى، وجعلته مقتصراً على دراسة اللاتينية واليونانية دراسة كاملة. لكن هذا التعليم نشرته حركة الإصلاح الدينى شعبياً، وبعد أن استقرت الأوضاع وتركزت شروط الحياة، بذلت جهود فى جميع البلاد "البروتستانتية" (باستثناء انجلترا) من أجل تثقيف الجماهير وتسليحهم بالوسائل الضرورية لقراءة التوراة على الأقل، وارتفع صوت "لوثر" بقوة داعياً إلى التعليم الشعبى .

* * * *

(*) روعت محاكم التفتيش العالم الأوروبى الذى خضع لنفوذها ، وساعدت الكنيسة على التحكم فى رقاب الناس وإثارة الفزع فى قلوبهم .

مراجع الفصل الثاني من الباب الأول

(1) جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، ص ص 242 – 243.

(2) المرجع السابق، ص244.

قارن أيضًا :

Diarmaid Macculloch , The Reformation , New York , Viking , 2004 .

(3) برتراند رسل، حكمة الغرب، ص 42.

(4) المرجع السابق، ص 43.

أنظر ايضًا :

Andrew pettegree , The Reformation world , London , New York , Routledge , 2002 .

(5) جون هرمان راندال، المرجع السابق، ص 249.

انظر أيضاً:

Brian P. Copenhaver and Charles B. Schmitt, Renaissance Philosophy, p. 108.

قارن كذلك

Luther , The Theological writings , edited by Timothey F. Lull , Fortress Press , 1989 .

(6) Anthony Kenny, Renaissance Thinkers, p. 52.

(7) نقلاً عن: جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، ص 258.

(8) المرجع السابق، ص 261.

(9) المرجع السابق، ص 272.

* * * *

obeikan.com